»أردني في المكسيك».. اللغة والأسلوب

د.عدنان كاظم

ينطوي كتاب «أردني في المكسيك» على أهمية خاصة، بوصفه سجلاً صادقاً للأحداث الواقعة في الفترة 1915-1935 في جميع نواحي الحياة، حيث أن صاحب المذكرات خليل سماوي لم يكن كاتباً، كما أنه لم يكتب هذه المذكرات بهدف نشرها في كتاب، بل كان يسجل ما يحدث له ومن حوله ببساطة وعفوية تخلو من أيٍّ من أشكال التأليف والخيال، وبالتالي يمكن التعامل مع محتويات الكتاب بدرجة كبيرة من الثقة .
يحتوي الكتاب على كنز من المعلومات المختلفة التي تصلح أن تُصنَّف تبعاً للمواضيع وتؤلَّف فيها كتب عدة تبعاً للاختصاص. ولا بد من الإشارة إلى الجهد الكبير الذي قامت به د.هند أبو الشعر التي تمتلك موهبة وملكة أدبية كبيرة، في صياغة المذكرات وتبويبها وتنسيقها وإضافة معلومات مهمة عن قوافل المهاجرين إلى بعض دول أميركا اللاتينية، لتقدمها للقارئ بصيغة كتاب مشوّق يشد القارئ من البداية إلى النهاية.

يشكل الكتاب موسوعة في جميع مجالات الحياة للفترة التي عاشها صاحب المذكرات، تستحق الدراسة والتحليل من المختصين، حيث وثّقت المذكرات لكثير من المواضيع المهمة، منها على سبيل المثال ثورة العرب على سلطة رجال الدين الأرثوذكس وإغلاق مدارسهم، وهجرة الأرمن في العام 1915، والتجارة المحلية، والتجارة مع القدس ودَور أهالي القرى فيها، ودور تجار دمشق وتأثيرهم في التجارة المحلية من خلال البضائع والقروض، ومواسم الزراعة وأساليبها ومناطقها، والطرق ووسائط النقل بين الفحيص والسلط وعمّان، وأحداث السط مع خروج الجيش العثماني ودخول الجيش البريطاني وتفاصيل ما رافق تلك الأحداث، وهجرة شباب البلقاء نحو الأميركيتين، وأحوال أهالي بلاد الشام خلال الحرب العالمية الأولى، والإشادة بدور الامير فيصل بن الحسين وأحرار العرب وانتصار المندوبين العرب في مجلس المبعوثان للعروبة وللمنفيين الأحرار الذين شنقهم جمال باشا، وصورة عمّان في مطلع عهد الإمارة، والزلزال الذي حدث في العام 1927، وموجات الجراد التي مرت على الإمارة في العامين 1915 و1928، وحالة التطور الاجتماعي في العهد المبكر للإمارة، ووصف المؤلف لخطوط السكك الحديدية في كل من فرنسا وإسبانيا والمكسيك والولايات المتحدة الأميركية، ووصفه الدقيق للرحلة الطويلة عبر المحيطات، ووصفه للوضع في المكسيك والكساد الاقتصادي الذي ساد فيها، وتفاصيل الرحلة المرعبة التي حاول فيها دخول الولايات المتحدة متسللاً وانتهت به في السجون، ثم عودته إلى أرض الوطن بعد خروجه من السجن بكفالة، وهجرته الثانية إلى المسكيك .
بدأ خليل سماوي أولى خطواته الصعبة نحو المجهول، بالهجرة إلى المكسيك يوم الخميس 1922/9/23، حيث

ذهب مبكراً مع شقيقه إبراهيم إلى سهل البقعة ليستقلا القطار المتوجه إلى القدس، وكان معهما خمسة شبان من أهالي الفحيص قرروا الهجرة مع خليل، ذهبوا من القدس إلى الإسكندرية حيث ركبوا الباخرة من هناك إلى مرسيليا التي نزلوا فيها بعد رحلة دامت سبعة أيام، ثم ركبوا باخرة أخرى سارت بهم نحو المكسيك عبر المحيط الأطلسي ودامت الرحلة ستة وعشرون يوماً .

يصف صاحب المذكرات الأوضاع الصعبة التي مر بها هو وزملاؤه من المهاجرين العرب بداية وصولهم إلى بلد غريب لا يعرفون فيه أحداً ولا يجيدون لغته، فتصبح الغربة غربتين، حيث لا يستطيع التفاهم مع الناس. وهو يصف أحوال الناس والسوق، والكساد الذي يعم البلاد، مما زاد حياته هناك تعقيداً. ومن المشاهد المؤلمة في المذكرات رحلته من المكسيك إلى الولايات المتحدة الأميركية بصورة غير شرعية، والتي عرّضته إلى الكثير من المخاطر وانتهى به المطاف في السجن في ولاية تكساس على الحدود المكسيكية الأميركية، والتي وصفها خليل وصفاً دقيقاً، وسمّى تلك الليلة التي تسلل فيها عبر الحدود: «الليلة الرهيبة»، فكان الخوف يلفه مع رفاقه من خطر الهنود الذين يرافقونهم حيث كانوا في الغالب يسلبون المهاجرين غير الشرعيين ويقتلونهم بدم بارد، وإن سَلِم المهاجرون منهم فلن يسلموا من خطر حرس الحدود الأميركان الذين لا يترددون في إطلاق النار على المتسللين وقتلهم .

يقول خليل في وصف تلك الليلة: «كانوا يزحفون على بطونهم حين اقتربوا من الشاطئ.. يدبون على أيديهم، وحين يشعرون بحركة ولو من غصن تحركه الرياح، يكتمون أنفاسهم بصدورهم حتى يكادوا يختنقون وهم يتلصصون بظلام ذلك الليل بغير طريق مسلوكة بين تلك الحفائر والصخور الناتئة، وقد مرت بهم ساعات تشيب الأطفال بمهودها وهم يكمنون ويقومون ويزحفون مترقبين هجعة من خُفَراء الشاطئ لكي يجتازوا النهر بسلام، فلم يبلغوا الشاطئ إلا بعد أن كادت أنفاسهم تزهق .«

وبعد وصولهم إلى شاطئ النهر في ظلام الليل تنتهي مهمة الهنود، ثم يستقبلهم في جنح الظلام «مسخٌ عريان» تقشعر لرؤيته تقشعر الأبدان في قارب متهالك يترجرج في وسط الماء ويكاد يغرق، ركبوا القارب الذي أخذ يتمايل بهم في إشارة إلى ضعف بنيته، وراح المسخ الذي أرعبهم يجدف بمجدافيه الصغيرين، فيُحدث صوتاً تنخلع له قلوبهم.. فما الضمانة لهم بألا يسمع حرس الحدود الأميركان صوت المجدافين؟ ما الضمانة بأن نيران الحرس لن تنطلق عليهم فجأة وتتتبع صوت المجداف؟ لا شك أنهم تصوروا أنفسهم يغوصون في أعماق النهر البارد فجأة والدماء تفور من أعناقهم، ولا شك أن مياه النهر باردة في هذه الليلة الشتوية اللعينة ..

كانوا يسمعون دقات قلوبهم تعلو على صوت المجداف، وقد سجل خليل سماوي مخاوفه من انطلاق النار الحامية من أفواه البنادق الأميركية التي تكاد تكون قاب قوسين أو أدنى منهم... تك.. تك.. تك.. ملايين المرات سمع خليل صوت دقات الساعة قبل أن يصلوا.. هل كان العبور عبر هذا النهر أطول من عمر خليل كله؟ ربما !

ثم ينجحان في عبور النهر قبل أن يأخذهما دليلٌ هندي آخر إلى محطة القطار ليضعهما في عربة شحن ويغلق الباب ويتركهما من دون أن يتحدث معهما، وبسبب عدم امتلاكهما تذاكر أو جوازات سفر يتم الإمساك بهما وينتهيان في السجن، فتفيض قريحة خليل شعراً ليسجل هذه الأحداث قائلاً:

»لا تقل لأمرٍ جرى كيف جرى
كـــل شـــيء بقضـــاء وقـــدرْ
إذا الله أراد لامـــرئٍ أمـــراً
أعمى نواظره وسلّ عقله سل الشَّعرْ
حتـــــى إذا أجـرى ما قدّرا
رد إليـــــه عقلـــه فيصـــبرا.«

يسرد صاحب المذكرات حياته ومعاناته في السجن بصورة دقيقة ومطولة، وتفيض قريحته بالشعر مسجلاً ما يجول بخاطره:

»أول ما أبدا بالكلام، بالصلاة والإكرام، نسجد لرب السلام هلّي بيحمينا بحماه
ثاني قولي بالسلام، أهديها لبدر التمام، أهديها للعذرا يا كرام، لأنها ملجأ الخُطَاه
ثالث ما نبدى الملام، عَلّلي صاير يا كرام ، أمر حيّر الأفهام، حيّر عقلي بمعناه
رابع قولي لإبراهيم، الحر العزم الهميم، دوم عمره مستديم، يهْنا عمره بالحياه
خامس قولي لسليمان، هلّلي نايم بأمان، الله لا يوريه الأحزان، طوّله عمره بهناه
سدسن القول المعدود، للي بفعالو محمود، كفو معلم على الجود، ربي يجمعني وياه
سبعناهن للجيران، للبنات وللصبيان، للحضر مع العربان، نجملهن جملة بالسواه
ثمناهن للحباب، للحضار والغياب، طلاّبين بلاد غراب، هذي الغربة تهد الجاه
تسعاهن للجميع، أكتبها بقلب وجيع، من جوّا الزرد المنيع، وسط حبوس منعناه.«

وكان خليل يصف كل ما يمر به وما يجول في خاطره شعراً، فيقول في إحدى قصائده:

»طار الكرى يا (عيد) من مقلة العين
دمع تحدَّر على خدودي حرقهن

يا عيد واوفيلي من الهجـــن ثنتيـــن
حـــرار عشاريات يلحق سبقهن
عوج عواجيات ثقل السراحيـــــن
سبحان رب العرش يومِنْ خَلقهن «

وتستمر معاناة صاحب المذكرات في السجون الأميركية، وتفشل جميع المحاولات بإخراجه من السجن وبقائه هناك، فيخرج بكفالة ويضطر لمغادرة الولايات المتحدة والعودة إلى أرض الوطن في العام 1923 يجر أذيال الخيبة، ويكتب في طريق عودته شعراً يعبّر فيه عن شوقه لأهله ويخبرهم في الوقت نفسه بمعاناته وما جرى له:

»يا طروش يللي صوب شرق تمدون
يمصادفين الرشد نوخوا الركايب
خذوا كتابي بالعجـــل وسيـــرون
لابن السماوي مع باقي القرايـب
قله امبارحه جتنـا أوراق بقانـــون
أحكام عرفي صادرة من الكتايب
أوامر السلطـــــان جتنا بقانـــون
تصاعدت نيرانـــها واللهايـــب .«

وبعد بضعة أشهر قضاها مع أهله وأصحابه يعود خليل للتفكير بالهجرة ثانية، ويتوجه مجدداً إلى المكسيك، ويسرد الكثير عن التغيرات التي رآها في رحلته الثانية. وخلال رحلته يتعرف على سيدة تركية تخبره بلغة المطّلعة المحللة على ما حصل من متغيرات وانقلاب في الأوضاع في تركيا على يد كمال أتاتورك، وبعد سنوات يعود خليل إلى الوطن ويسجل في مذكراته تفاصيل عدة عن الزلزال وموجات الجراد وما وصلت إليه حال الإمارة بعد 26 عاماً على تأسيسها .

وتمكن الإشارة إلى أن خليل سماوي لم يكمل تعليمه، إلّا أن المذكرات تثبت أنه كان على درجة كبيرة من الوعي والثقافة والحس والأسلوب الأدبي، ويظهر ذلك جلياً من خلال طريقة توثيقه وتحليله للأحداث وأسلوبه الأدبي الواضح في بعض الاقتباسا والقصائد.

ومن ذلك حديثه عن جده إبراهيم الذي حرمه إخوته من حقه في الميراث، فرحل إلى مضارب العجارمة الرحَّل ليعيش معهم ويعمل هناك لإعالة أطفاله الستة. يقول خليل: «وبتلك الأيام، حيث لا حكومة مدنية تحكم الأهالي، بل عشائر تحكم بعضها بعضاً، والقوة تغلب كل شيء والحق بالسيف .«وحول انتظار إبراهيم الفرصة السانحة حتى يشتد عضد أبنائه لاستعادة حقه يقول خليل:» فتدربوا على الفروسية والشجاعة حتى شاع ذكر فروسيتهم بين الركبان، وامتدت هيبتهم حتى رموا الرعب بالقلوب وتبطل عند ذكر فروسيتهم شجاعة كل شجاع .«

وفي وصفه لوالده -الابن الأكبر للعائلة الذي تولى رعاية شؤونها -يقول خليل: «كان منذ حداثته ذكياً فطناً لبيباً شجاعاً كريم النفس متشرباً حب الرئاسة، واشتهر اسمه وكرمه حتى أحبه الخاص والعام وصار مهيب الجانب بين الأهالي عالي النفوذ مسموع الكلمة عند الحكومة». وفي حديثه عن شقيقه الأكبر إبراهيم يصفه بأنه «تربى بأحضان والديه ومع رفاقه القرويين، لا يعلم عن شقاء الإنسانية شيئاً، فقد شاهد منذ أن وُلد خيراً كثيراً وأموالاً كثيرة، شاهد والده تاجراً من الدرجة الأولى ومن كبار المزارعين وأصحاب المواشي، فظن أن تلك المالية لا تخلص .«

وفي حديث خليل عن موسم الحصاد ونفوره من ذلك العمل ورغبته في التجارة والعلم يقول: «صباحاً في نحو الساعة الخامسة ينهض الفتى من نومه، ويذهب ليجلب الماء من الآبار إلى البيت، ثم يملأ الأوعية ويحملها معه إلى الحصادين بعد أن يشد على الدواب، وهناك في الحقل تتغير وظيفته إلى شدّاد حيث يشد القوادم ويحملها، فتتغير وظيفته إلى مكاري أو رجّاد، فيسوق تلك الجِمال إلى البيادر التي تبعد عن الحقل ليس أقل من نصف ساعة، وبعد أن يصُفّ الزرع بنظام على بيدره، يعود إلى الحقل حتى الظهر، فتتغير وظيفته إلى الغمارة، فيصير يجمع الزرع وإبراهيم يشد، ويذهب بها إلى البيدر .«

وفي وصفه لخروج أهل قرية الفحيص عند انسحاب الجيش الإنجليزي وعودة الأتراك إليها يقول: «النساء تولول والأطفال تبكي والرجال تستغيث وتتأوه ولا من مجير، فمن هارب بملابسه ومن حامل على ظهره حملاً تعجز عنه الحمير، ومن لم يستطع أن يحمل شيئاً إلا أطفاله الصغار، والنساء كذلك منهن فارعة دارعة تحمل على ظهرها حملاً لا يستطيع الجمل أن يحمله، والجميع يصرخ ويستغيث ويندب ويولول، والخوف عامي أبصارهم، فلا الأخ ينظر لأخيه، ولا الابن لأبيه، والرجل لم يسأل عن امرأته، واختلط الحابل بالنابل يتدافعون ويركضون بغية الهرب.«

كما إن ما تضمنته المذكرات حول ظاهرة الهجرة ومعاناة المهاجرين العرب تستحق الدراسة والتوقف عندها، وهي تصلح أن تكون مادة لكتاب حول هذه الظاهرة التي ما زالت مستمرة إلى يومنا هذا. وتجدر الإشارة هنا إلى سر توجُّه المهاجرين العرب نحو بلدان أميركا اللاتينية ووصول بعضهم إلى مراكز مرموقة في تلك الدول.. ذلك يعود إلى فترة حروب الاستقلال في مطلع القرن التاسع عشر، حيث تم صياغة دساتير وقوانين تلك البلدان لتمنح

حقوق المواطنة الكاملة لكل من كان على أراضيها من الأجانب بعد الاستقلال عن الحكم الإسباني، وأسس ذلك لثقافة التعايش بين مكونات المجتمع إلى يومنا هذا.
إن رحلة حياة صاحب المذكرات بما فيها من مغامرات وعلاقات وتنقُّل بين البلدان، تصلح أن تكون مادة رائعة لرواية جميلة إذا ما أُحسن استخدامها وصياغتها بأسلوب وإحساس أدبي. ومن المشاهد الرائعة لهذه الرواية، هجرة خليل سماوي إلى القدس في المرة الأولى وهو ابن ستة عشر عاماً، ثم عودته إلى الفحيص وتعرفه من خلال صديق له على عائلة من أهل الفحيص وغرامه بابنتهم الجميلة التي لم يحالفه الحظ بالزواج منها بسبب الوضع المادي السيئ لعائلته، ثم النقاش الحاد الذي دار بين خليل ووالده حول سفره إلى القدس تمهيداً لهجرته إلى أميركا، ثم سفره من القدس إلى الإسكندرية ومنها بحراً إلى مرسيليا، ثم إلى المكسيك عبر الأطلسي وما عاناه فيها مع بعض رفاقه المهاجرين من العرب ثم محاولته الهجرة إلى الولايات المتحدة متسللاً بعد فشله في الحصول على موافقة القنصل الأميركي في العاصمة المكسيكية، وعبوره الحدود في مغامرة مرعبة، لكن الحظ لم يحالفه وانتهى به المطاف في السجن.

الجمعة 2014-05-30